مقامات الحريرى وإعجاز القرآن فى حوار مسيحى إسلامى فى الأندلس ★

للأستاذ الدكتور محمود على مكى

فكره [١] . فنحن نرى من بين المستعربين من

إذا كانت إسبانيا خلال العصور الوسطى ميدانا لصراع طويل عسكرى وسياسى بين المسلمين والمسيحيين فإنها لم تخلُ فى الوقت نفسه من حقب طويلة تحقق خلالها تعايش بين الملتين تمثل أولا فى « المستعربين Los mozaabes » المسيحيين الذين عاشوا فى ظل الدولة الإسلامية إبان قوة هذه الدولة ، ثم فى « المدّجنين Los mudéjares » المسلمين الذين درجت حياتهم تحت سيادة المسيحية ، وذلك منذ تغير ميزان القوى فى الجزيرة ، فأصبحت للمسيحيين الكفة الراجحة .

وكثيراً ما اتخذ الصراع بين المسلمين والمسيحيين صيغاً من الحوارين علماء الجانبين وهو حوار استعان كل فريق فيه بكل الأسلحة الفكرية الممكنة وأولها معرفة لغة الآخر والتعمق فى دراسة عقيدته وتعرف مقومات

كانوا يجيدون العربية نظماً ونثراً ، والشواهد على ذلك أكثر من أن نعددها ، وتكفينا شهادة ألبارو القرطبى Alvaro de Cordoba فى سنة ٢٤٠ (٨٥٤) ، وهى التى ينعى فيها على إخوانه فى الدين أنهم « نسوا حتى لغتهم اللاتينية ، فلا تكاد تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابًا سليمًا من الخطأ . فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد فيهم عدداً عظيمًا يجيدون فنون بلاغتها وينظمون من الشعر العربى ما قد يفوق شعر العرب أنفسهم » [٢] ويصدق هذه الشهادة اتخاذ الأمير محمد بن عبد الرحمن كاتبًا نصرانيًا هو قومس بن أنتنيان [٣] وهو الذى يصفه ابن حيان القرطبى بأنه « كان قريع كل من ينتحل البلاغة فى عصره » [٤]

(*)ألقى البحث فى الجلسة الثانية عشرة للمؤتمر المنعقدة يوم الأحد ٢٩ من شوال سنة ١٤١٤ هـ الموافق ١٠ من أبريل (نيسان) سنة ١٩٩٤ م .

أما معرفة المسلمين بلغة مساكنيهم من المسيحيين فهى بدورها حقيقة لا تحتاج إلى أن نأتى عليها بشواهد ، غير أن الذى يهمنا فى هذا المقام ليس مجرد معرفة لغة الكلام أو التعامل اليومى ، وإنما تلك المعرفة التى تسمح لكل فريق بالتعمق فى الاطلاع على عقيدة الآخر وإقامة حوار معه يتسم بقدر من الموضوعية وإن كان يتفاوت فى الحدة وعلو الصوت .

وقد كان من أول من كتبوا فى الدفاع عن المسيحية ومناقشة العقيدة الإسلامية القس إسبرايندیو Spera - in - Deo فى كتاب اتخذ له عنوانًا يكشف عن طابعه الجدلى هو Apologetico (أى دفاع عن المسيحية) . ولم يبق من هذا الكتاب المؤلف باللاتينية إلا مقتطفات احتفظ بها بعض تلاميذ ذلك القس وأهمهم القديس إيولوخيو San Eulogio وألبارو Alvaro القرطبيان (٥)

وقد كتب كلاهما أيضا فى مهاجمة الإسلام كتابات كان من الطبيعى فى مثل هذا الوقت المبكر ألا تتسم بالموضوعية ، وإنما كانت لاستثارة المسيحيين ودفعهم إلى تحدى السلطة الإسلامية مما نتج عنه ما عرف بحركة الاستشهاد التى اندلعت فى منتصف القرن التاسع الميلادى فى أواخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط وأوائل عهد ابنه محمد (ما بين سنتى ٢٣٦ و ٢٤٥/ ٨٥٠ - ٨٥٩) . وقد عالجت سلطات الدولة هذه الثورة بقدر كبير من الحكمة وضبط النفس ، فلم تلبث أن انحسرت بعد سنوات قليلة . أما ذلك « الحوار » الذى تضمنته كتابات رجال الدين المسيحيين الذين أشرنا إليهم فإنها كانت تدل على معرفة ضئيلة بتعاليم الإسلام ومبادئه على الرغم من معايشتهم للمسلمين واتصالهم الوثيق بلغتهم وثقافتهم (٦) .

والواقع أننا لا نجد فى هذه الكتابات « حواراً » بمعنى الكلمة ، فهى لا تخرج عن كونها ضربًا من السباب والتجريح الذى لا يستند إلى أى حجج عقلية . وعلى كل حال فقد خمدت هذه الثورة من الاستفزازات

والتحديات وأعقبتها فترة طويلة من التعايش السلمى بين المسلمين وجيرانهم من أهل الذمة استمرت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

وخلال القرن التالى (الخامس / الحادى عشر) وفى ظل الجو العلمى السائد فى عصر ملوك الطوائف المتسم بالحرية الدينية والفكرية نجد عودة إلى حوار أقرب إلى الموضوعية بين المفكرين المسلمين ونظرائهم من المسيحيين واليهود . فابن حزم القرطبى (المتوفى سنة ١٠٦٣/٤٥٦) يناقش العقيدتين المسيحية واليهودية فى كتابه « الفصل » [٧] . وفى هذا الحوار الذى لا يخلو من حدة اتسم بها جدل ابن حزم دائما يبدو التقدم الهائل الذى أحرزته الثقافة الأندلسية خلال القرن الأخير ، إذ هو يكشف عن معرفة عميقة بدقائق العقيدتين المسيحية واليهودية واطلاع واسع على كتبهما المقدسة . ومن ناحية أخرى نجد مثل هذه المعرفة لدى يوسف بن إسماعيل (صمويل) ابن النغريلة قريع ابن حزم فى جدله ، وكان يوسف هذا كاتبًا لبلقين بن باديس بن حبوس ولى عهد أبيه ملك غرناطة ، وكان بشهادة ابن بسام « قد نظر فى الكتب وشدا شيئًا من علم العرب » (٨) ونُقِل عنه ادعاؤه القدرة على نظم القرآن شعراً وموشحات (٩) ومع ما فى هذا الادعاء من تبجح وتهويل فإنه يدل على أنه كان يتسلح بثقافة عربية متينة .

وإلى هذا العصر نفسه يرجع حوار آخر إسلامى مسيحى يتمثل فى الرسالة التى وجهها راهب إفرنسة إلى ملك سرقسطة على عهد الطوائف المقتدر بن هود يدعوه إلى اعتناق المسيحية ، والرد على هذه الرسالة بقلم الفقيه الأندلسى الذى اشتهرت مناظرته لابن حزم ، وهو أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى (المتوفى سنة ١٠٨١/٤٧٤) [١٠] . وبالإضافة إلى ما يكشف عنه رد الباجى من عميق المعرفة بالعقيدة المسيحية فإننا نلاحظ أيضا كيف أصبح أسلوب رسالة الراهب الفرنسى وجواب الباجى يميل كلاهما إلى الهدوء والاعتدال .

ويظهر أن الحوار الإسلامى المسيحى تزايد فى الأندلس منذ استيلاء ملك قشتالة ألفونسو السادس على طليطلة فى سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) فقد كان معظم ساكنى العاصمة القوطية القديمة من المسلمين ، وكان الملك القشتالى يتباهى بأنه « ملك الملتين » ، وقد بدأت منذ فتح المدينة وتحويل مساجدها إلى كنائس محاولات رجال الدين المسيحيين لحمل مسلمى المدينة على اعتناق المسيحية . ونتصور أنه كان من بين هؤلاء من يجيدون العربية ، فقد كانت هذه اللغة راسخة الجذور بين المستعربين النصارى فضلا عن سكانها من المسلمين ، كما لا نستبعد أن هؤلاء المستعربين بحكم تعايشهم مع شعب طليطلة المسلم قد عرفوا الكثير عن الإسلام وتعاليمه .

فخلال القرن السادس (الثانى عشر) نرى كيف وجَّه أساقفة طليطلة كتابًا إلى أحد علماء المسلمين وفقهائهم فى نقد الإسلام وبيان فضل المسيحية . وقد قام بتحرير هذا الكتاب أحد المستعربين الذين يعرفون العربية معرفة متوسطة هو عبد الرحمن بن غصن . أما الفقيه الذى انتدب للرد على هذا الكتاب فهو أبو مروان عبد الملك بن مَسَرَّة بن عُزَيْزاليحصبى القرطبى ، وكان تلميذاً ذا حظوة لدى الفقيه قاضى الجماعة بقرطبة أبى الوليد محمد ابن أحمد بن رشد (الجَدّ) ، وهو ممن جمعوا بين الفقه والحديث وسعة الاطلاع على الأديان والنِّحَل ، وكانت وفاته فى رمضان سنة ٥٥٢ (سبتمبر ١١٥٧) (١١) . وعنوان رسالة ابن مسرة هو « ميزان الصدق ، المُفَرِّقُ بين أهل الباطل والحق » ، وكانت من مرويات تلميذه أبى بكر محمد بن خير الإشبيلى (١٢) وقد اطلع عليها ابن الأبار القضاعى البلنسى ونقل تقريظًا شعريًا لها نظمه تلميذ آخر لابن مسرة هومفرِّج بن محمد بن عصام الفهرى اللشبونى يبدأ بقوله :

عقيدةُ إيمانٍ حَدَتْها كرامةٌ

تَجَلّى ظلامُ الشركِ منها بكوكبِ (١٣)

ولم تصل إلينا رسالة أساقفة طليطلة التى

وجهوها إلى قرطبة ، غير أن فقرات منها نقلت فى كتاب « الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام » المنسوب لفقيه شرقى يدعى « القرطبى » دلالة على أصله الأندلسى . وقد وصف لنا صاحب هذا الكتاب تلك الرسالة فقال إنها كتبت فى بطاقة صغيرة عدد أسطارها نحو ثلاثين ، وهو يسجل فى هذه الأسطر القليلة تسعة وعشرين موضعًا فيه لحن وتصحيف ، كما ينقل لنا فقرات من رد ابن مسرة [١٤] .

ومن الواضح أن طليطلة أصبحت مركزاً لنشاط تبشيرى كبير كان يهدف إلى تنصير المسلمين عن طريق الحوار ، وهو ما دفع بالعلماء الأندلسيين إلى اتخاذ مواقف دفاعية وهجومية فى الوقت نفسه . ولم تكن رسالة ابن مسرة هى الوحيدة التى كتبها فقيه أندلسى دفاعًا عن الإسلام ، وإنما شاركه فى ذلك عالم آخر معاصر له هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد ابن أبى عَبِيدة الخزرجى القرطبى الذى عاش بين سنتى ٥١٩ و ٥٨٢ (١١٢٥ - ١١٨٧) وكان قد أسر سنة ٥٤٠ (١١٤٥- ١١٤٦) وحمل إلى طليطلة حيث ظل سنتين فى الأسر ، وهناك ألف كتابه « مقامع الصلبان ، وروائع رياض الإيمان » يرد به على بعض من اتصل بينه وبينهم الحوار من قسيسى العاصمة القشتالية . ثم تخلص من الأسر ، ورحل إلى المغرب ، فلازم تدريس الفقه والحديث فى جامع القرويين بفاس حتى وفاته . وقد ألف ابن أبى عبيدة هذا كتبًا أخرى فى ميدان الجدل مع المسيحيين كما يبدو من عناوينها ، ومنها كتاب « مقام المدرك ، فى إفحام المشرك » وإذا كانت رسالة ابن مسرة التى أشرنا إليها من قبل قد ضاعت فإن هذا الكتاب قد نجا من عدوان الزمن ، إذ احتفظت خزائن الكتب فى تونس وإستامبول بعدة نسخ مخطوطة منه . وكان المستشرق الأسبانى فرناندو دى لاجرانخا أول من استفاد منه ونشر منه نصوصًا تدل على أهميته فى دراسته القيمة حول « بعض الكرامات المسيحية الإسبانية فى كتاب جدلى إسلامى » [١٦] .

وقد أشار فرناندو دى لاجرانخا فى ملاحظة ذكية تضمنتها دراسته السابقة إلى أن تأليف ابن أبى عبيدة الخزرجى لكتابه يأتى فى مرحلة بالغة الأهمية من مراحل العلاقات بين المسيحية والإسلام ، فقبل ذلك بسنتين (١١٤٣/٥٣٨) كان روبرت كيتون قد فرغ من أول ترجمة لاتينية كاملة للقرآن الكريم قام بها بتكليف من(بيتر الجليل) [١٧] وقد كان منتصف القرن الثانى عشر الميلادى هو العصر الذى ازدهرت بطليطلة فيه حركة بالغة النشاط لترجمة العلوم العربية وغيرها من كتب التراث الإسلامى المشرقى والأندلسى إلى اللاتينية [١٨] .

ولم يحل الصراع السياسى والعسكرى الدائرين الجانبين من انتقال العلماء بين المدن الإسلامية والمسيحية بهدف مزيد من التعارف وتبادل الآراء وعقد المناظرات . ولعل من أجلى الأمثلة على ذلك ما نجده فى ترجمة عالم غرناطى هو عبد الله بن سهل الضرير المنبوز بـ « الوجه نافخ » الذى يذكر عنه أنه كان من المشتغلين بالعلوم الدينية واللغوية ، فقد كان متبحراً فى القراءات القرآنية والحديث النبوى والنحو ، وأضاف إلى ذلك معرفة عميقة بالطب والرياضيات ، يقول عنه ابن الخطيب : « ثم شهر بعلم المنطق والعلوم الرياضية وسائر العلوم القديمة ، وعظم بسببها وامتد صيته من أجلها ، وأجمع المسلمون واليهود والنصارى أنه ليس فى زمانه مثله ولا فى كثير ممن تقدمه ، وبين هذه الملل الثلاث من التحاسد ما عُرِف . وكانت النصارى تقصده من طليطلة تتعلم منه أيام كان بِبَيَّاسة (Baeza) ، وله مع قسيسيهم مجالس فى التناظر حاز فيها قصب السبق » . وكانت وفاة هذا العالم الموسوعى بمرسية فى سنة ٥٧٦ (١١٨٠ - ١١٨١) [١٩] .

ومع اشتداد الزحف المسيحى على ما بقى بأيدى المسلمين من أرض الأندلس بعد موقعة العقاب فى سنة ٦٠٩ (١٢١٢) وسقوط الحواضر الإسلامية الكبرى فى أيدى ملوك قشتالة وأرغون خلال النصف الأول من القرن

السابع (الثالث عشر الميلادى) تزداد حركة الحوار بين الديانتين ، فقد كانت سلطات الكنيسة حريصة على بذل كل جهد ممكن لتنصير الشعب المسلم الذى أصبح يطلق عليه اسم « المدجنين » (mudéjares) ، على حين كان المسلمون متشبثين بعقيدتهم ، وكان فقهاؤهم وعلماؤهم يواصلون عملهم فى التصدى لمحاولات التنصير بألسنتهم وأقلامهم .

وقد رأينا فى ترجمة عبد الله بن سهل الغرناطى الذى كان قساوسة طليطلة يتوجهون لمناظرته أنه عاش السنوات الأخيرة من عمره فى مدينة مُرْسِيَة Murcia ، ولعل هذا كان مؤشرا مبكرا يبشر بالدور الكبير الذى قدر لهذه المدينة أن تضطلع به فى مجال تبادل الأفكار بين المسلمين والمسيحيين خلال النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وذلك مايدعونا إلى تأمل الظروف التاريخية التى عاشتها هذه الحاضرة الأندلسية ، إحدى أهم حلقات التواصل بين الملل والثقافات .

من المعروف أن الاجتياح المسيحى الكبير الذى انتهى إلى الاستيلاء على حواضر الأندلس الكبرى قد تم بقيادة ملكين متعاصرين : جاقمة أو خايمى الأول ملك أرغون الملقب بالفاتح Jaime I , el Conquistador وهو الذى استولى على منطقة شرق الأندلس : بلنسية وشاطبة ودانية والجزائر الشرقية (جزر البليار) ، وفرذلند أو فرناندو الثالث الملقب بالقديس Fernando III , el Santo وهو مفتتح المنطقة الوسطى والغربية : جيان وقرطبة وإشبيلية ومايصاقبها غربا . وبقيت ما بين المنطقتين مدينة مرسية وإقليمها فى وضع قلق فهى لم تفتح عنوة من قبل جيوش قشتالة ولا أرغون ، ولكن أهلها كانوا يعرفون أنه لا قِبَلَ لهم بمواجهة المد المسيحى ، ولهذا فإنهم بعد تعاقب عدد من الزعماء المتنافسين على حكمها اضطروا إلى عقد صلح مع ملك قشتالة فرناندو الثالث اعترفوا فيه بتبعيتهم له مع دفع مال اتفقوا على تسليمه له على أن يدبروا هم أمور مدينتهم . وهذا هو ما نص عليه المؤرخ

ابن عـذارى المراكشى ، إذ يقـول فـى أخـبـار سنة ٦٤٣ (١٢٤٥) : « أمـا أهل شـرق الأندلس (وهو يعنى مرسيـة وأعـمـالهـا) فسالموا النصارى بمال معلـوم ، وبعضهم تدجّنوا وأسكنوا معهم الروم » [٢٠] . وهذا يدل على أنهم تمتعوا بوضع متميز إلى حد ما ، فقد احتفظوا بلون من الاستقلال أو الحكم الذاتى لم يستمر إلا قرابة عشرين سنة . فابن عذارى يذكر فى أخبار سنة ٦٦٢ (١٢٦٤) أن أهل مرسيـة الذين ضاقوا بمن حل بأرضهم من المسيحيين بعثوا ببيعتهم إلى محمد الفقيه بن محـمـد بن يوسف النصـرى ملك غـرناطة مستنجدين به ، فأرسل إليهم صهره الرئيس أبا محمد ابن أشقيلولة واليًا على المدينة ، ولكن النصارى زحفوا إليه وضربوا عليه الحصار ، فلما عجز عن المقاومة خرج هاربًا هو ورجاله . وحينما طال الحصار على مرسيـة اضطر أهلهـا إلى التسليم بعـد سنتين فى ٦٦٤ (١٢٦٦) [٢١] .

وكان الصلح الذى انعقد بين أهل مرسيـة وفرناندو الثالث ملك قشتالة فى سنة ٦٤٣ (١٢٤٥) قد تم إبرامه على يد ابن هذا الملك وولى عهده أذفونش (ألفونسو) الذى ولى الحكم بعد أبيه فى ربيع الأول سنة ٦٥٠ (آخر مايو ١٢٥٢) واستمر حكمه لقشتالة حتى أول سنة ٦٨٣ (أبريل ١٢٨٤) ، وقد عرف هذا الملك بلقب ألفونسو (العاشر) « الحكيم » Alfonso x , el Sabio ، وذلك بسبب عنايته الفائقة بالثقافة ورعايته للعلماء من كل جنس ودين [٢٢] وكان ألفونسو قد نشأ فى بيئة متشبعة بالثقافة العربية ، فعمل منذ أن كان وليًا لعهد أبيه على إحياء مدرسة المترجمين بطليطلة ، وحينما عهد له أبوه بإخضاع مرسية التى كانت من أزهر الحواضر الثقافية فى الأندلس أنشأ هناك معهداً يضم علماء من الملل الثلاث : مسلمين ومسيحيين ويهوداً ، وقام هذا المعهد بترجمة عدد كبير من الكتب العربية فى مختلف فروع العلوم ، وعهد بإدارة هذا المعهد لعالم مسلم هو أبو بكر محمد بن أحمد المرسى المعروف بالرِّقوطىّ (نسبة إلى

بلدة رقوط Ricote من أعمال مرسية) . وهو الذى يقول ابن الخطيب فى ترجمته : « كان طرفًا فى المعرفة بالفنون القديمة : المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب ، فيلسوفًا ماهراً ، آية فى المعرفة بالألسن ، يقرىء الأمم بألسنتها فنونهم التى يرغبون فى تعلمها ... عرف طاغية الروم (يعنى ألفونسو الحكيم) حقه لما تغلب على مرسية ، فبنى له مدرسة يقرىء فيها المسلمين والنصارى واليهود . ولم يزل معظمًا عنده » . ويبدو أنه مل خدمة الملك المسيحى ، إذ استجاب أخيراً للدعوة التى وجهها إليه ثانى ملوك بنى الأحمر فى غرناطة محمد بن محمد بن يوسف الملقب « بالفقيه » (حكم بين سنتى ٦٧١ و ٧٠١ / ١٢٧٢ - ١٣٠٢) فرحل إلى غرناطة وأسكنه قصراً آل ملكه بعد ذلك إلى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، فاتخذ منه مدرسة كان الطلبة يغشونها فيتعلمون عليه الطب وسائر العلوم [٢٣] ولم يؤثر عن هذا العالم الفذ أنه اشترك فى الجدل الدينى ، غير أن ابن الخطيب يروى عنه نادرة تكشف عن روح الفكاهة عنده ، وذلك فى حديث دار بينه وبين الملك المسيحى الذى كان معجباً به أشد الإعجاب ، فقد عرض عليه أن يعتنق المسيحية ووعده لقاء ذلك بأن يحظيه ويغدق عليه عطاياه فكان جوابه « أنا الآن أعبد واحداً وقد عجزت عما يجب له ، فكيف حالى لو كنت أعبد ثلاثة ؟ ! » [٢٤] .

ويبدو أن مرسية قد تأثلت شهرتها بصفتها بيئة علمية ذات طابع عالمى بحكم جمعها بين الثقافات والديانات على اختلافها ، وهذا هو ما حمل فريدريك الثانى النورماندى ملك صقلية (حكم بين سنتى ٥٩٠ و ٦٤٨ / ١١٩٤ - ١٢٥٠) على أن يبعث إليها بعدة أسئلة كلامية وفلسفية مما يختلف فيه الإسلام والمسيحية ، وهذه هى التى تعرف بـ « المسائل الصقلية » . فانتدب للإجابة على هذه المسائل ذبًا عن شريعة الإسلام عالم مرسىّ ولد أيضًا فى رقوط ، هو عبد الحق بن إبراهيم المعروف بابن سبعين (٦١٤ - ٦٦٩ / ١٢١٧ -

١٢٧١) [٢٥] . وكان ابن سبعين قد تلقى ثقافته الأولى فى بلده مرسية ، وهى ثقافة يبدو من كتاباته ، وبخاصة من إجاباته على « المسائل الصقلية » التى كتبها وهو فى مطلع شبابه ، أنها كانت واسعة ، تضم إلى العلوم الإسلامية معرفة عميقة بالمسيحية واليهودية وآراء طوائفهما المختلفة ، كما تكشف عن معرفة راسخة بالفلسفة والرياضيات والفلك والطب وعلوم الطبائع [٢٦] .

ويذكر ابن الأبار فى ترجمته لمحمد بن على ابن أحلى اللورقى (المتوفى سنة ١٢٤٧/٦٤٥) وكان متأمِّراً بلورقة Lorca أنه كان عالماً يجتمع إليه فى علم الكلام ويؤخذ عنه ، وله تآليف فيه . وحينما أمكن أهل مرسية منها الروم أبدى ابن أحلى مخالفته لهم « وجعل يجادلهم (يعنى المسيحيين) بلسانه ، ويجالدهم بسنانه » [٢٧] . كذلك يذكر ابن الخطيب فى ترجمة محمد بن محمد بن لب الكنانى المالقى المعروف بابن لب (وكان يعيش فى القرن السابع الهجرى) أنه كان معتنيا بالعلوم القديمة من الرياضيات والطبيعيات والإلهيات مطلعًا بمذاهب القدماء ، « وكان له أرب فى التطواف وخصوصًا بأرض النصارى ، يتكلم مع الأساقفة فى الدين ، فيظهر عليهم » [٢٨] .

ونستشف من كثير من تراجم العلماء خلال منتصف القرن السابع الهجرى أن هذه المناظرات بين الجانبين الإسلامى والمسيحى كانت واسعة الانتشار ، وأنها كانت تحظى بتشجيع من الأمراء والحكام . فقد احتفظ لنا ابن الخطيب بنص رسالة طريفة كتبها أحد علماء مرسية ، وهو محمد بن عبد الله بن داود الغافقى (المتوفى بتلمسان سنة ١٢٨٧/٦٨٦) إلى صديقين له بمرسية يقول فيها متحدثا عن قدومه على إشبيلية بعد وقوعها فى أيدى المسيحيين سنة ١٢٤٨/٦٤٦ ، وكان قدومه بدعوة من قبل ألفونسو الذى كان ولى عهد لأبيه آنذاك ، وعن حفاوة الأمير المسيحى به : « وصلنا إشبيلية ضحوة يوم الثلاثاء خامس ربيع الآخر (فى تاريخ يقع بين سنتى ١٢٤٨و١٢٥٢) ...

ولقينا الإفانت (هى لفظة إسبانية infante ويقصد بها ولى العهد) على ميلين ، وفزنا بما ظهر من بشره واعتنائه بقرار الخاطر وقرة العين ، ونزلنا الأخبية. خارج البلد ... ورغبنا عن المدينة لحرها الوهاج وغبارها العجاج ... » (٢٩) ونستنتج من هذا النص مدى الحفاوة التى كان ألفونسو يستقبل بها من كان يدعوهم من علماء المسلمين لكى يشتركوا فى المناظرات التى كان يعقدها بينهم وبين أقرانهم من علماء المسيحية .

فى مثل هذه البيئة الأندلسية التى حفلت بالمساجلات والجدل لم يكن من الغريب أن نجد من العلماء المسلمين من يتقنون لغة جيرانهم المسيحيين ، ومن هؤلاء من يعرفون العربية معرفة تعمق فى أساليبها البلاغية واطلاع على أدبها شعراً ونثراً وهو ما سنرى عليه دليلاً جليًا فى النص الذى سنورده ، وهو حوار دار بين أحد القسيسين وأديب مسلم من مرسية هو أبو على الحسين بن عتيق بن رشيق . وأول من يرجع إليه الفضل فى اكتشاف هذا النص هو المستشرق الإسبانى الصديق الذى أشرنا إليه مراراً فى ثنايا هذا البحث : فرناندو دى لاجرانخا ، وذلك فى مقال بديع له نشره فى مجلة « الأندلس » بعنوان « مساجلة دينية فى مرسية فى عصر ألفونسو الحكيم » (٣٠) ولكن علينا أن نتعرف أولا شخصية هذا الأديب الذى كان ينتمى إلى أسرة عريقة فى العلم والفضل ، ثم شخصية رجل الدين المسيحى الذى دار معه ذلك الجدال .

اسم الأديب المرسى المسلم راوى الحوار وأحد طرفيه هو أبو على الحسين بن رشيق وقد أورد هذا الحوار فى كتاب له لم يصل إلى أيدينا هو « الرسائل والوسائل » . وهناك ترجمة له فى كتاب « الإحاطة » ينص فيها ابن الخطيب على اسمه الكامل ، وهو أبو على الحسين ابن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبى ، ويصفه بأنه « مرسى الأصل سبتىُّ الاستيطان ، منتمٍ إلى ابن رشيق صاحب الثورة على المعتمد » .

وقد تبين لنا أن اسم « رشيق » يتردد فى أعلام ينتمون إلى منطقة شرق الأندلس ، ولكننا لا نملك أن نقطع بصلة القرابة بين هؤلاء الأعلام ، وإن كانت حيواتهم فى المنطقة نفسها

ترشحهم لذلك . وأول من نعرفه من هذه الأسماء « رشيق » (هكذا بغير نسبة) موصوف بأنه « مولى الناصر» ، وكان عاملاً على الجزائر الشرقية (جزر البليار) للخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر ، ويذكر عنه أنه توفى غريقا فى البحر فى سنة ٣٤٣ (٩٥٤) . ويظهر أنه كان من الصقالبة الذين استجلب الخليفة الأندلسى عدداً منهم وأسند إليهم بعض المناصب الكبرى ، وهذا يجعل من المستبعد أن يكون رأس هذه الأسرة التى يذكر فى عمود نسبها أنها كانت تنتمى إلى قبيلة تغلب بالولاء [٣١] .

ونجد بعد ذلك كاتبا فقيها محدثا يدعى أبا العباس أحمد بن رشيق [٣٢] ، يذكر عنه « أن أباه كان من موالى بنى شهيد وأنه نشأ بمرسية وانتقل إلى قرطبة ، وبرز فى صناعة الرسائل ، ومال إلى الفقه والحديث ، وشارك فى سائر العلوم ، وأن العلاقة توثقت بينه وبين أبى الجيش مجاهد بن عبد الله العامرى (المتوفى سنة ٤٣٦/١٠٤٥) بحكم « الصحبة فى النشأة » ، فقدمه على كل من فى دولته ، وولاه جزيرة ميورقة ، فكان ينظر فيها نظر العدل والسياسة » ، ويفهم من هذا النص أنه كان حاكماً على الجزيرة [٣٣] وهو الذى آوى ابن حزم حينما نُعِى عليه مذهبه الظاهرى ، وبين يديه جرت مناظرته المشهورة لأبى الوليد الباجى ، وكانت له رسائل مجموعة متداولة ، وتوفى بعد سنة ٤٤٠ (١٠٤٩) عن سن عالية .

ثم تأتى بعد ذلك أسرة بنى رشيق المرسيين التى كان رأسها صاحب الثورة على المعتمد ابن عباد . وهو عبد الرحمن بن رشيق الذى لا نعرف على وجه التحديد ما إذا كانت له صلة قرابة بذلك الذى كان حاكماً على جزيرة ميورقة وبنص الذين ترجموا للمتأخرين من ذريته على أنهم كانوا تغلبيين بالولاء . وقد كان ابن رشيق هذا على عهد الطوائف عاملاً على حصن بلج Vilches حينما كان يدبر أمر مرسية أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد المعروف بابن طاهر القيسى . وكان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يطمع فى ضم مرسية إلى مملكته ، فأرسل جيشاً أمّرعليه ابنه الملقب بالرشيد وأسند قيادته إلى وزيره الأثير لديه أبى بكر محمد بن عمار الشاعر لمحاصرة مرسية ، غير

أنهما فشلا فى الاستيلاء عليها ، ثم كرر ابن عمار المحاولة ، واجتاز فى طريقه على حصن بلج ، فلما سمع ابن رشيق به خرج إليه ورغبه فى النزول عنده ، فأجابه ابن عمار إلى ذلك ، واحتفل ابن رشيق فى إكرامه وخدمته ، فكافأه ابن عمار بأن وكل إليه قيادة جيشه ، وأمره بمغادرة مرسية وتشديد الحصار عليها وعاد هو إلى إشبيلية . واضطلع ابن رشيق بما أسند إليه حتى تمكن من فتح مرسية وطرد ابن طاهر منها والدعوة فيها لابن عباد ، وكان ابن عمار ينوى الغدر بمولاه المعتمد والاستيلاء على مرسية لنفسه ، غير أن ابن رشيق سبقه إلى الغدر به ، إذ استمال أهلها وقدم صنائعه وقرابته على معاقل مرسية وقام بضبط المدينة ، فلما قدم عليها ابن عمار أغلق أبوابها دونه حتى اضطره إلى مغادرتها يأساً منها . وحينما نهض أمير المرابطين يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٨٣ (١٠٩٠) فى جوازه الثانى إلى الأندلس لمحاصرة حصن ليبط Aledo أسرع ابن رشيق فخطب بمرسية لابن تاشفين على حين كان يعاون المسيحيين المعتصمين بالحصن سرًّا . وصح ذلك عند أمير المسلمين ، فعقد له مجلسًا استفتى فيه الفقهاء ، فقضوا بتسليمه إلى سلطانه ابن عباد ، ولكن قرابته وصنائعه اعتصموا بمعاقلهم . واضطر يوسف بن تاشفين إلى رفع الحصار عن ليبط والعودة غاضبًا إلى المغرب بعد أن أخفقت الجهود للاستيلاء على الحصن بسبب تفرق كلمة ملوك الطوائف . أما ابن رشيق فقد أمر ابن عباد بثقافه وسجنه فى لورقة Lorca (٣٤) .

ولم تفدنا المصادر بالظروف التى أحاطت بتخلصه من سجنه ولا بالسنوات الأخيرة من حياته ، ولكننا نعرف من الأخبار المتصلة به أن أسرة ابن رشيق هذا كانت كبيرة ، وأن أفرادها كانوا منتشرين فى الأندلس ولاسيما فى المنطقة الشرقية ، وأنه كان لهم نفوذ كبير فى الحياة السياسية والاجتماعية .

وإذا كان عبد الرحمن بن رشيق قد اضطرب فى غمار السياسة وخاض خطوبها فقد كان من أفراد أسرته من اشتغلوا بالعلم وانقطعوا له . نذكر منهم فقيها يدعى أبا عمر أحمد بن رشيق وينسب إلى بجّانة Pechina ، وكان معاصراً لعبد الرحمن المذكور ، ولكننا لانعرف من عمود نسبه ما إذا كان أخًا له وإن كان قريبًا

لـه على كـل حـال وقـد احتفظ لنـا ابـن بشكوال بترجمة قصيرة لـه نعرف منها أنـه كـان فقيها مشاوراً فى المرية وأنه توفى سنة ٤٤٦ (١٠٥٤) (٣٥) .

ونعرف من ذرية أحمد بن رشيق هذا فقيها ومحدثا يدعى أبا محمد عبد الغنى بن مكى ابن أيوب بن أحمـد بن رشـيق ، كـان مـن أهل شـاطبة ، Jativa ، وتفـقـه على أبيـه وروى الحـديث عـن أبى على الصـدفى بمرسـيـة ثم بشاطبة ، وتولى الشورى ببلده ، وكانت وفاته سنة ٥٥٥ (١١٦٠) (٣٦) .

وأمـا عـبـد الرحـمن بن رشـيق فنعـرف من ذريتـه عـالمـا يدعى أبا بكر عـتيق بن الحسين ابن عبد الله بن محمد ، وهو بياسيّ نزل مرسية ودرس على أبيـه وعلى عـدد من علمـاء شـرق الأندلس ، وكان متعدد جوانب الثقافة ، فقد كـان محـدثا فقيها نحويـا أديبا تاريخيـا آخـذاً بحظ وافـر من علم الطب والرياضيـات بفضل تلمذته على الطبيب والعشّاب الإشبيلى المشهور أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومـيـة (ت ١٢٤٠/٦٣٧) ، وكـان مشـتـغـلاً كذلك بعلم الكلام وأصـول الفقـه .

وقـد ولـد فـى ثامن جمادى الآخرة سنة ٥٨١ (١٩ سبتمبر ١١٨٥) وتوفى بمرسية غرة ذى الحجة سنة ٦٦١ (٦ أكتوبر ١٢٦٣) . ويرجع التفصيل فى ترجمة عتيق بن الحسين هذا إلى أن ابن عـبـد الملك المراكشى الذى أوردها كـان تلمـيـذاً لابنه أبى على الحسين صاحب المناظرة التى ستكون موضوع حديثنا فيما بعد (٣٧) .

ويدل على المكانة العلمية لعتيق هذا أن عدداً من جلة علمـاء القرن السابع الهجرى قد تلمذوا عليـه ، ومنهم ابن عـبـد الملك المراكشى الذى أشرنا إليه ، ومنهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ابن الزبيـر صـاحب « صلة الصلة » (ت ١٣٠٨/٧٠٨) (٣٨) ، ومـحـمـد بن أحـمـد الفـهرى المعروف بابن الجلاب الإشبيلى نزيل تونس (سنة ١٢٦٦/٦٦٤) الذى كـتب إليـه عتيق بالإجازة (٣٩) .

وقبل أن نتحدث عن أشهر أفراد هذه الأسرة وهو صاحب المناظرة موضوع الدراسه علينا أن

نشير إلى أن بعض أفراد أسرة بنى رشيق قد رحلوا إلى المشرق واستقروا فى مصر فى تاريخ لانستطيع تحديده ولكن يبدو أنه فى أواخر القرن الخامس . فنحن نجد فى كتاب « الديباج المذهب » لابن فرحون وفى المصادر المصرية ترجمات لبعض أفراد هذه الأسرة تبدأ بفقيه يدعى أبا على الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق الربعى ، ويلاحظ أن الاسم والنسب يتفقان تماما مع ماللمرسىً صاحب المناظرة حتى إننا ظَنَنَّا فى بادئ الأمر أن هناك خلطا بينهما ، غير أن أبا على هذا الذى ترجم له ابن فرحون ولد بمصر سنه ٥٤٩ (١١٥٤) واتخذ على عادة المشارقة لقباً دينياً هو جمال الدين ،و درس الحديث على والده الذى يبدو أنه أول من هاجر من هذه الأسرة من الأندلس إلى المشرق ، كما درس على عدد من المحدثين والفقهاء المصريين، وتوطدت مكانته حتى أصبح شيخ المالكية فى وقته وكان عليه مدار الفتيا فى هذه البلاد حتى وفاته سنة ٦٣٢ (١٢٣٥) .[٤٠]

و يظهر أن بنى رشيق هؤلاء الذين انتقلوا إلى مصر قد استبدلوا بنسبتهم التغلبية القديمة نسبا أعم إلى ربيعة .

وتسلسل العلم فى هذا الفرع المصرى من الأسرة فقد كان للحسين هذا ابن يدعى محمداً ويلقب بعلم الدين ، ورث عن ابيه مشيخة المالكية وولى قضاء الإسكندرية وكان مولده سنة ٥٩٥ (١١٩٩) ووفاته سنه ٦٨٠ (١٢٨١) [٤١] ثم أعقب هذا ابن له أيضاً يسمى محمداً ويلقب بزين الدين ، قد ولى مثل أبيه قضاء الإسكندرية وكان مولده سنة ٦٦٣ ووفاته سنه ٧٢٥ (١٢٦٥- ١٣٢٥) [٤٢] .

وقد خطر ببالنا أن هذه الأسرة قد تكون مصرية خالصة لاعلاقة لها ببنى رشيق الأندلسيين ، غير أن الاتفاق فى الأسماء وفى النسبة (إذ لاتعارض فى الحقيقة بين انتساب الأندلسيين إلى تغلب والمصريين إلى ربيعة) وكون المصريين من شيوخ المالكية وهو المذهب السائد فى الأندلس – كل ذلك يحملنا على أن نفترَض أن هؤلاء المصريين ليسوا إلا فرعاً من الأسرة الأندلسية هاجروا منذ قديم إلى مصر وأصبحوا من أهلها .ثم إننا وجدنا فى أبيات لأبى على الحسين بن عتيق المرسى فى إجازة لأحد تلاميذه مايشهد بصحة ما فرضناه ، إذ يقول فيها :

وَجَدّى رشيق شاع فى الغربِ ذكرُهُ
وفى الشرق أيضًا فادْرِ إن كنت لاتدرى[٤٣]

ونصل أخيرا إلى أشهر من أخرجه هذا البيت من العلماء ، وهو صاحب المناظرة التى سوف نفصل الحديث عنها ، وهو أبو على الحسين بن عتيق الذى استطعنا أن نجمع عنه مادة موفورة إلى حد ما .

أبو على هذا هو ابن آخر من تحدثنا عنهم من بنى رشيق الأندلسيين ، وهو مثل سائر أفراد أسرته مرسىُّ الأصل ، إذ يظهر أنه ولد فى مرسية فى تاريخ لم يسجله ابن الخطيب فى ترجمته له فى «الإحاطة» ، ولكننا نجد فى ترجمة أحد تلاميذه وهو يوسف بن إبراهيم الفهرى الغرناطى الساحلى (عاش بين سنتى ٦٦٧ و ٧٥٢ / ١٢٦٩ - ١٣٥١) نصا يقول فيه : « كتب إلىّ شيخنا محمد (كذا وهو تحريف عن حسين) بن عتيق بن رشيق فى الاستدعاء الذى أجازنى ولمن سمى فيه :

أجزت لهم - أبقاهم الله - كل ما

رويت من الأشياخ فى سالف الدهر

ولى مولد من بعد عشرين حجَّةً

ثمان على الست المئين ابتدا عمرى[٤٤]

ومعنى هذا أنه ولد سنة ٦٢٨ (١٢٣١) . وقد قضى صباه ومطلع شبابه فى مسقط رأسه مرسية ، وفيها درس على أبيه الذى تحدثنا عن مكانته العلمية الرفيعة وعلى بعض شيوخ المدينة . نذكر منهم محمد بن إبراهيم بن عبد الملك الأزدى القيجاطى (المتوفى سنة ٦٤٣/١٢٤٥)[٤٥]

ويقول ابن الخطيب فى ترجمته[٤٦] إنه « كان نسيج وحده وفريد دهره إتقانا ومعرفة ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية والتعاليمية ، متبحراً فى التاريخ ، ريان (فى الأصل : ريانا) من الأدب ، شاعرا مفلقا ، عجيب الاستنباط ، قادرا على الاختراع والأوضاع » . وحينما اشتد الزحف المسيحى على بلده مرسية رحل إلى المرية Almeria فخدم أميرها على بن يوسف بن نصر من قرابة سلطان غرناطة وأخاه الأصغر محمدا من بعده ، ثم هاجر إلى سبتة واستقر بها حتى عُدَّ من أهلها ، واشتغل بالكتابة لأمير هذه المدينة المغربية أبى القاسم محمد بن أحمد العزفى[٤٧] ويظهر أن التنافس بينه وبين زميله الكاتب والشاعر السبتى أبى الحكم مالك بن المُرَحِّل (٦٠٤ - ٦٩٩/١٢٠٧- ١٣٠٠) قد أدى إلى الاشتباك بينهما

فى مهاجيات ومهاترات بالغة العنف ، وقد حفظ لنا ابن الخطيب خبر هذا النزاع الذى نظم فيه ابن رشيق قصيدة فى هجاء ابن المرحل متسمة بأفحش الأقذاع . وكان ابن رشيق يتردد على الأندلس ، فقد نزل بالمرية من جديد وأصيب بأسر عياله ، فتوسل إلى عامل المرية بقصيدة يرجوه فيها التدخل لاستنقاذ أسرته من الأسر ، ثم توجه إلى غرناطة ومدح السلطان بها وهو محمد بن محمد الفقيه ثانى ملوك دولة بنى الأحمر . ويبدو أن مسعاه نجح فى النهاية ، فخلصت عائلته من الأسر . ثم نراه بعد ذلك وقد عاد إلى سبتة ، وحينما ولى ملك بنى مرين ثانى سلاطينهم أبو يعقوب يوسف ابن يعقوب بن عبد الحق (حكم بين سنتى ٦٨٦ و٧٠٦/١٢٨٧-١٣٠٧) استدعاه للكتابة عنه . وأما عن سنة وفاته فإن ابن الخطيب لم يعرفها ، وإنما اكتفى بالقول إنه كان حيا سنة ٦٧٤ (١٢٧٥-١٢٧٦) . والوحيد الذى أورد سنة وفاته هو صاحب « بلغة الأمنية » ، فقد ذكر أنه توفى بتازة فى التاسع من المحرم سنة ٦٩٦ (٧ نوفمبر ١٢٩٦) ، وكان قد توجه فى وفد أهل سبتة الذى ذهب للقاء السلطان أبى سعيد ابن يوسف (؟) ومرض جل ذلك الوفد بالحمى ، ومات منهم جملة كان ابن رشيق من بينهم .

وقد تلمذ لابن رشيق عدد كبير ممن شهروا بالعلم من الأندلس والمغرب ، نذكر منهم الفقيه الموثق عبد الله بن على ... بن سلمون الكنانى الغرناطى (ت ٧٤١/ ١٣٤٠)[٤٨] وأبا جعفر أحمد بن الحسن بن الزيات الكلاعى من أهل بلش مالقة Vélez - Málaga (ت ٧٢٨ /١٣٢٨)[٤٩] ، وعبد المهيمن بن محمد الحضرمى السبتى كاتب السلطان أبى الحسن المرينى (ت ٧٤٩/١٣٤٨)[٥٠] .

أما عن أعماله فابن الخطيب يقول إن له أوضاعا غريبة واختراعات عجيبة ، يذكر منها سفرة للشطرنج دائرية الشكل[٥١] ، ويذكر من مؤلفاته كتابا كبيرا فى التاريخ ، وتلخيصا لهذا الكتاب يسمى «ميزان العمل» يصفه بأنه « من أطرف الموضوعات » ، وهو كتاب اختلط على بعض المؤلفين المتأخرين اسم صاحبه ، فظنوه لابن رشيق القيروانى صاحب كتاب « العمدة »[٥٢] . وقد نقل عن هذا الكتاب المؤرخ المغربى ابن أبى زرع فى موضعين : ذكر

فى أولهما التاريخ الصحيح لبيعة مهدى الموحدين محمد بن تومرت غرة سنة ٥١٦ (مارس ١١٢٢) وتاريخ وفاته فى ١٣ رمضان سنة ٥٢٤ (منتصف أغسطس ١١٣٠)[٥٣] ، وفى الموضع الثانى تاريخ بيعة عمر المرتضى فى غرة ربيع الأول ٦٤٦ (٢٤ يونيه ١٢٤٨) . غير أن ابن أبى زرع نبه على خطأ هذا التاريخ[٥٤]

وبسبب هذه الأخطاء وبسبب إمعان الكتاب فى الاختصار نقد ابن خلدون كتاب « ميزان العمل » نقدا عنيفا ، إذ قال وهو يتحدث عن تدهور الكتابة التاريخية : « ثم جاء آخرون بإفراط الاختصار ، وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقتصار ، مقطوعة عن الأنساب والأخبار ، موضوعة عليها أيامهم بحروف الغبار ، كما فعل ابن رشيق فى « ميزان العمل » ، ومن اقتفى هذا الأثر من الهمل ، وليس يعتبر لهؤلاء مقال ، ولايعد لهم ثبوت ولا انتقال ، لما أذهبوا من الفوائد ، وأخلوا بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد »[٥٥] .

وينسب أحمد بابا التنبكتى لابن رشيق كتابا آخر اختصر فيه « ترتيب المدارك » فى تراجم المالكية للقاضى عياض السبتى[٥٦]

وأخيرا هناك كتاب آخر لابن رشيق لم يذكره أحد ممن ترجموا له وهو « الرسائل والوسائل » الذى نقل منه صاحب « المعيار المغرب » نص المناظرة .

هذا عن شخصية ابن رشيق راوى المناظرة وأحد طرفيها ، فماذا عن شخصية مساجله القسيس المسيحى ؟

لم يورد ابن رشيق اسم هذا القس ، ولكنه رسم له وللطائفة التى كان ينتمى إليها صورة تستوقف النظر وتقدم لنا معلومات جديدة عن العلاقات بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية فى منتصف القرن السابع الهجرى فى تلك البيئة المتفتحة : مدينة مرسية فى أواخر أيامها الإسلامية .

أما طائفة هذا القس فهى كما يصفها ابن رشيق جماعة من القسيسين والرهبان شأنهم الانقطاع للعبادة ، والنظر فى العلوم ، وهم مشغوفون بمطالعة كتب المسلمين وترجمتها بلسانهم ، ونستشف من هذه العبارات أنهم كانوا على مستوى رفيع من معرفة العربية ، وهو وصف ينطبق على طائفة الرهبان الدومينيكان Orden de los Domincicos الذين كانوا أحرص الطوائف

المسيحية على تعلم اللغات الأجنبية والاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى ، لأن ذلك كان سلاحهم فى مهام التبشير التى استغرقت شطرا كبيرا من جهودهم ومن أجل ذلك كان هدفهم من ترجمة العلوم العربية لم يكن مجرد الاستفادة كما كان شأن المترجمين السابقين بمدرسة طليطلة ، بل أصبحت الترجمة الآن « برسم النقد » كما ينص ابن رشيق ، إذ كان التعمق فى معرفة ثقافة الإسلام بالنسبة لهم مدخلا لنشاط جدلى يرمى إلى تنصير من « تدجّنوا » من المسلمين ، أى أصبحوا خاضعين لسلطة مسيحية . وكان ذلك تنفيذا لسياسة ملوكهم الذين كانوا يغدقون عليهم الأموال من أجل الوصول إلى هذا الهدف .

وأما القس المناظر لابن رشيق فهو على حد وصفه « قسيس من بلاد مراكش » . وقد يبدو هذا الوصف غريبا لأول وهلة ، ولكن وجه الغرابة يزول إذا ذكرنا أن خلفاء الموحدين كانوا يستعينون فى جيوشهم بفرق من المرتزقة المسيحيين الذين كان بعضهم فى الأصل أسرى حرب ولكنهم انتهوا بعد ذلك إلى الدخول فى خدمة دولة الموحدين . وكان هؤلاء يقيمون فى معسكرات وثكنات فى ضواحى بعض المدن المغربية ، وسمح لهم الخلفاء بممارسة شعائرهم الدينية ، فكانت لهم مصلياتهم وقساوستهم الذين كانوا يضطلعون برعايتهم الروحية . ويذكر فرناندو دى لاجرانخا أنه ابتداء من سنة ٦٢٢ (١٢٢٥) على الأقل كانت هناك أسقفية فى مدينة مراكش ، ولهذا فمن الأرجح أن يكون هذا القسيس مناظر ابن رشيق قد اكتسب معرفته بالعربية وبالإسلام خلال مقامه بمراكش فى تلك الأسقفية(٥٧) .

وقد حاول المستشرق الإسبانى الاهتداء إلى شخصية هذا القس ، فتبين له أنه كان فى تلك السنوات رجل من رجال الدين يدعى « غرسيه بطره Garsia Petri » ويوصف فى إحدى وثائق العصر بأنه « قسيس مراكشى Marrochitano archidiacono » ، وكان ألفونسو الحكيم - الذى كان ولى عهد أبيه آنذاك - قد عهد إليه بمهام سياسية لا علاقة لها بمنصبه الدينى ، وقد حفظت عنه تحركات فى نواحى قشتالة خلال سنتى ٦٢٣ و ٦٢٤ (١٢٥٥ - ١٢٥٦) . وربما يكون قد حل بمرسية فى إحدى المهام التى وكلت إليه ، ولو أنه ليس هناك مايسند هذا الفرض .

وخطر بيال فرناندو دى لاجرانخا بعد ذلك أن هذا القس قد يكون رامون مارتى Ramon Marti الذى تتفق ملامح شخصيته مع الصفات التى أضفاها ابن رشيق على مناظره . وكان مارتى (أو مرتين) قسا قطلانيا انتدب منذ سنة ٦٤٧ - ٦٤٨ (١٢٥٠) للتبشير بالمسيحية بين المسلمين . وذلك لأنه فى هذه السنة عقد مؤتمر كنسى فى طليطلة بإشارة من فرناندو الثالث « القديس » . وفى هذا المؤتمر تم اختيار ثمانية رهبان من منطقة قطلونية Cataluna ، وكلفوا بدراسة العربية فى المعهد الذى كانت طائفة الدومينيكان قد أقامته فى مرسية . ونحن نعرف أن مارتى ألف كتابا جدليا تعرض فيه للقرآن الكريم ، وهو كتاب لم يصل إلينا ، ولكن الذى وصل هو المعجم العربى اللاتينى الذى ينسب إليه[٥٨] . وهو الذى يعرف باسم Vocabulista in Arabico وهو يعد أول معجم يزاوج بين العربية ولغة أوربية[٥٩] . غير أن هذه النسبة لم يسلم بها جميع من درسوا هذا الكتاب . وكانت حجة سيمونيت فى نسبته له أن هناك حوارا ملحقا بمخطوطة المعجم يدور بين أحد المسلمين ومسيحى يدعى رَمُنْدُ مَرتين Raimundo Martin حول مسألة إعجاز القرآن ، وهو الموضوع الذى يعالجه من وجهة نظر إسلامية حوار ابن رشيق مع مساجله المسيحى . وقد انتهى جرانخا إلى أنه على الرغم من هذه الاتفاقات فإنها ليست كافية لكى نخلص إلى أن صاحب الحوار الذى نحن بصدده هو ذلك القس الدومينيكى رامون مرتين[٦٠] .

١ - لعل أول ما يستحق البحث فى أمر هذه المناظرة[٦١] هو تحديد التاريخ الذى جرت فيه . وإذا كان لنا أن نثق بصدق الحسين ابن رشيق فى قوله إنه كان إذ ذاك غلاما مراهقا « ما بقل وجهه » (أى لم يكن قد التحى بعد) فإننا نقدر أنه كان فى وقتها فى الخامسة أو السادسة عشرة من عمره . وإذا كان مولده فى سنة ٦٢٨ (١٢٣١) كما ذكرنا فى ترجمة حياته فإن تاريخ المناظرة لابد أن يكون فى نحو سنة ٦٤٣ أو ٦٤٤ (١٢٤٧ - ١٢٤٨) ، وهذا يوافق مايذكره فى مطلع الرسالة من أنه كتبها بمدينة مرسية « أيام محنة أهلها بالدجن » أى حينما سلمت صلحا ، فقدمت إليها جموع من المسيحيين يزاحمون أهلها فى سكناها . وهو يقول إنه كان آنذاك يجلس بين يدى والده

لكتب الوثائق وعقود الأحكام ، ويتفق هذا مع مايذكره مترجمو أبيه أبى بكر عتيق من أنه كان يشتغل بالتوثيق .

٢ – المناظرة تواكب تماما الجو الذى كان يسود مرسية فى منتصف القرن السابع والذى سبق أن وصفناه بأنه كان يحفل بمجالس الجدل بين علماء المسلمين والمسيحيين . وإذا كنا قد رأينا فى عرضنا لصورة هذه البيئة علماء مسلمين يتقنون لغة جيرانهم ويعرفون دقائق تعاليم المسيحية وشرائعها فإننا نرى فى هذا النص كيف كان مجادلوهم من المسيحيين متقنين للغة العربية ، قارئين للقرآن الكريم مطلعين على الأدب العربى اطلاع من يصمد لمواجهة حول نص من أصعب نصوصه وأشقها على غير العربى ، والجدل حول موضوع شائك هو إعجاز الأسلوب القرآنى .

٣ – أسلوب الحوار – كما نرى من النص – لم يعد يتخذ ذلك الطابع العنيف الذى رأيناه فى المجادلات السابقة ، فابن رشيق يصف قريعه بأنه « معتدل فى المناظرة ، متأدب فى الكلام عن الشارع (صلوات الله عليه) » ، وهو حريص على أن ينفى كل مايمكن أن يفهم من كلامه من أنه طعن على القرآن الكريم أو استخفاف بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

٤ – موضوع الجدل بين القسيس المسيحى وابن رشيق يختلف عما كان يثور بين أصحاب الملتين من قبل ، فهو لا يتعلق بجوهر العقيدة أو مبادئها وتعاليمها ، وإنما حول قضية ذات شقين : دينى وبلاغى ، وهى قضية إعجاز القرآن ، ولعل هذه هى أول مرة نلتقى فيها بجدل من هذا النوع . والقضية التى طرحها القسيس فى تلطف ومهارة هى : هل القرآن الكريم معجز ببلاغته ؟ فإذا كان الأمر كذلك فإنه يجوز أن يقال إن كل نص بليغ يعجز أصحاب البيان عن الإتيان بمثله يمكن أن يشارك القرآن فى هذه الصفة ، وهو يضرب على ذلك مثلا بما ذكره الحريرى فى المقامة السادسة والأربعين وهى « المقامة الحلبية » من تحدِّيه للأدباء وادِّعائه أن ليس فى وسع أحد أن يزيد بيتا واحدا على بيتين أوردهما فى هذه المقامة(٦٢) .

أما هذه المقامة فعلى الرغم من نسبتها إلى حلب فإن الحريرى جعل مسرحها مدينة حمص التى يصف أهلها بالرقاعة والحماقة . وهناك يلتقى راوى المقامات الحارث بن همام بشيخ

مؤدب صبيان يكتشف – كالعادة – بعد ذلك أنه صاحبه أبو زيد السروجى ، ويعرض الشيخ على ضيفه مهارات صبيانه الأدبية واللغوية فيطلب منهم واحدا واحدا أن ينشدوا شعرا يقترح له ألوانا من الغرائب اللغوية ، فهو يسأل الأول أن ينشد أبياتا كلماتها خالية من الإعجام ، ويطلب إلى الثانى شعرا مشقلا بجناسات غريبة ، وإلى الثالث أبياتا لو كتبت بغير نقط لبدت مؤلفة من أزواج متماثلة من الألفاظ ، وإلى آخر أبياتا تضم الألفاظ التى تحتمل السين فيها أن تنطق صادا ... وهكذا . وفى ثنايا هذه الاختبارات يطلب إلى أحد الصبيان أن ينشد « البيتين المطرفين المشتبهى الطرفين اللذين أسكتا كل نافث ، وأمنا أن يعززا بثالث » ، وهو يعنى أن كلا منهما يبدأ وينتهى بلفظين متماثلين ولكن بمعنيين مختلفين ، وهما :

سم سمة تحسن آثارها

واشكر لمن أعطى ولو سمسمه

والمكر مهما اسطعت لا تأته

لتقتنى السؤدد والمكرمه

وقد كان الحريرى – غفر الله له – يعتقد أنه أتى فى هذين البيتين بالمعجز الذى لا يستطيع أديب أن يأتى بمثله . وأصبحت دعواه هذه عناء للأدباء من بعده ، إذ تعاقبت محاولاتهم أن ينظموا أبياتا على نفس الوتيرة كما سوف نرى .

ويقول القسيس فى جدله لابن رشيق : « وقد مضت بعد الأعصار وانقرضت الأجيال ، فلم يأت أحد لهما بثالث كما قال ، لا فى عصره ، ولا بعد عصره ، على كثرة درس الناس لها { أى للمقامات } وتداولها فى مجالس المذاكرة » . ويبدو ذلك غريبا من رجل يبدو أنه كان واسع الاطلاع على الأدب العربى متابعا لاهتمام الأدباء فى الشرق والغرب بمقامات الحريرى ، إذ لم تبلغه أنباء المعارضات الكثيرة التى قام بها كثير من الأدباء ليبتيه المشهورين .

وعلى كل حال فلم يكن أمام ابن رشيق إلا أن يحارب غريمه بنفس سلاحه ، فكد قريحته لكى يأتى ببيت من الطراز نفسه . والحقيقة أن مسألة القسيس وجواب ابن رشيق الذى يقول إنه أفحم مناظره حتى « كأنما ألقمه حجرا » كان كلاهما بالغ السذاجة ، على أنه كان مدركا لذلك بدليل قوله : « ورأيت فيه من الانكسار لذلك مالم أره عند سماع الحجج

العقلية والمآخذ الأصولية » ، فقد كان القسيس يظن أنه قد غلب مناظره إذا أقر له بعجز الشعراء عن محاكاة الحريرى فى «بهلوانياته» البديعية . فمن الواضح أن بيتى الحريرى ومعهما البيت الذى عارضهما به ابن رشيق فى غاية التكلف ، وهى مجرد نظم لايمت إلى الجمال الفنى الحقيقى بصلة ، غير أن أذواق الأدباء والمتأدبين فى هذا العصر كانت قد تغيرت ، فأصبح مثل هذا التلاعب اللفظى هو معيار التفوق والسبق .

٥ – ومن هنا يبدو لنا ضربا من السخف أن يتحدَّثَ عن « إعجاز » أتى به الحريرى ، وأسخف منه أن يذكر هنا فى معرض الكلام عن الإعجاز فى البلاغة القرآنية . وقد كان الأصوليون وعلماء الكلام الأندلسيون قد عالجوا قضية إعجاز القرآن من قبل ، وإن كان طرحها مختلفا عما نراه فى هذه المناظرة ، فقد تحدث أبو الوليد الباجى عنها فى الرسالة التى وضعها جوابا على راهب إفرنسة ، إذ يقول :

« ثم أكرمه [يعنى الرسول محمدا عليه الصلاة والسلام] الله تعالى بالمعجز الذى فضله الله به على جميع النبيين والمرسلين ، وهو القرآن الذى هدى به الإنس والجن أجمعين . قال الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (سورة الإسراء آية ٨٨) . فتحدى به العرب والعجم وجميع الأمم ، والعرب فى ذلك الوقت أهل فصاحة وبيان ، متناهٍ فى ذلك الشان ، فلم يستطع أحد منهم أن يأتى بسورة من مثله »(٦٣) .

كذلك عالج هذه القضية معاصر الباجى وغريمه فى الجدل ابن حزم الظاهرى ، وإن كان ابن حزم يتخذ موقفا آخر فى تفسير الإعجاز القرآنى ، فهو يقول :

« وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن فى أعلى طبقات البلاغة . وهذا خطأ شديد . ولو كان ذلك – وقد أبى الله عز وجل أن يكون – لما كان حينئذ معجزة ، لأن هذه صفة كل ماسبق فى وقت ما ، فلا يؤمن أن يأتى فى غيره مايقاربه بل ما يفوقه ، ولكن الإعجاز فى ذلك إنما هو أن الله عز وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ، ورفع عنهم القوة فى ذلك جملة(٦٤) » .

ورأى ابن حزم هذا هو المعروف باسم القول بـ « بالصرفة » أى أن الله صرف البشر عن الإتيان بمثل القرآن . وقد أخذ بهذا الرأى عدد من العلمـاء المتـقـدمـين من أهل الكلام والبلاغيين . وقـد أورد أبو بـكر الباقلانى (المتـوفى سنة ٤٠٣/١٠١٢) حجج هؤلاء ، وأفرد لتفنيدها صفحات من كتابه « إعجاز القرآن »(٦٥) .

ونرى مما عـرضناه أن منطلق رجل الدين المسيحى فى مناقشة هذه القضية يقوم على إنكار التفوق البلاغى للقرآن الكريم ، وذلك لأن البشر فى نظره قادرون على أن يأتوا بما تعجز بلاغته ، وهذا هو الحريرى تحدى الأدباء بأن يأتوا بمثل بيته فعجزوا عن ذلك ، فشأنه فى التحدى وشأن القرآن سواء . ومنطلق القسيس فى هذا الرأى يشبه منطلق ابن حزم فى رأيه بالصرفة وإن كان هدف كل منهما مختلفا عن هدف الآخر كل الاختلاف . فهل كان القسيس مطلعا على ما كتبه ابن حزم ؟ لسنا نستبعد ذلك فقد كان كما نرى من مناظرته واسع الاطلاع على الثقافة العربية ، وأولى به أن يكون ذا إلمام بكتاب مثل « الفِصَل » يدخل فى دائرة الحوار الدينى والمذهبى ، ولاسيما إذا كان من كتب التراث الأندلسى .

٥ - وقد فطن الأدباء فى المشرق والمغرب منذ قديم إلى تحدى الحريرى ، ولا شك فى أنه كان يكمن فى الوعى الساذج لكثير منهم أن العجز عن مساجلة بيتى الأديب البصرى قد يشتبه على بعض الناس مع العجز عن محاكاة الأسلوب القرآنى ، فيكون فى ذلك تشكيك فى إعجاز القرآن البلاغى . ولهذا فقد نهضوا لقبول تحدى منشئ المقامات وعنوا أنفسهم أشد العناء فى معارضة بيتيه حتى ينفوا صفة الإعجاز عنهما . أما فى المغرب فقد ساق ابن عبد الملك المراكشى فى ترجمته للأديب الإشبيلى سلام بن عبد الله بن سلام الباهلى (ت ١١٤٩/٥٤٤) - وهو أيضا من معارضى المقامات - ثلاثة أبيات من طراز البيتين ، ثم استطرد إلى الحديث عن محاولات أخرى أورد منها عشرة أبيات لأبى زيد التميلى ، وبيتين لأبى إسحاق الكانمى ، وستة أبيات لأبى أمية إسماعيل بن سعد السعود بن عفير ، وبيتا لابن مبارك التونسى ، وبيتين لابن عبد الملك نفسه(٦٦) . على أن ابن عبد الملك نقد معظم هذه المحاولات نقدا عنيفا ، إذ قال فى ثنايا

عرضه : « وقد تعاطى جماعة من الشعراء تذييل بيتى الحريرى المذكورين بما كان سكوتهم عنه أصون لافتضاحهم وأستر ، وإخلادهم إلى حضيض العجز عن مساماته أوج إجادته أولى بهم وأجدر(٦٧) .

ومع ذلك فلم يكف الأدباء عن هذه المعارضات العقيمة ، حتى إن المقرى بعد أن يورد أربعة أبيات من هذا الطراز للعالم النحوى محمد بن الصائغ يعلق عليها بقوله : « رأيت فى المغرب فى هذا المعنى ما ينيف على سبعين بيتا كلها مساجلة لبيتى الحريرى »(٦٨) .

٦ - ونأتى فى النهاية إلى قضية مازالت موضع نقاش بين مؤرخى الأدب الإسبانى ودارسى الأدب المقارن ، وهى مدى تأثير المقامة العربية فى نشأة لون من ألوان الفن القصصى الإسبانى ، وهو ما يسمى بقصص الشطارة المعروفة باسم La novela picaresca . وقد رجح هذا التأثير علماء مثل رامون منندث بيلايو فى كتابه « أصول الرواية »(٦٩) ، وأنخل جونثالث بالنثيا فى « تاريخ الفكر الأندلسى »(٧٠) ومن الثابت أن المقامات العربية كان لها تأثير كبير فى الأدب العبرى الأندلسى ، إذ قام كتاب اليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين بترجمة مقامات الحريرى إلى العبرية ، كما عارضوها بمقامات تماثلها فى بنيتها وشخصياتها وأسلوبها المثقل بزخارف البديع(٧١) أما تأثيرها فى الأدب الإسبانى فهو موضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، ولو أنه يبدو مرجحا إلى حد بعيد(٧٢) .

وقد كان المعترضون على هذا التأثير المحتمل يحتجون دائما بصعوبة لغة المقامات بحيث لم يكن فى وسع المسيحيين من أهل الأندلس فهمها واستيعابها(٧٢م) . على أننا نرى من نص المناظرة بين ابن رشيق والقسيس المسيحى أن المقامات لم تكن مجهولة فى عالم الثقافة الإسبانية المسيحية ، بل كان من بين رجال الكنيسة من يحفظونها ويخوضون الجدل بالعربية حول بلاغتها وقيمتها الفنية . ولعل هذا النص يساهم فى ترجيح الرأى القائل بالتأثير العربى فى ذلك الفن القصصى الإسبانى الذى تفردت به إسبانيا وازدهر فيها منذ القرن السادس عشر الميلادى .

الضميمة الأولى

نص المناظرة بين ابن رشيق والقس المسيحى فى مدينة مرسية

وذكر أبو على الحسين بن رشيق فى كتاب « الرسائل والوسائل » قال(٧٣) : كتب(٧٤) بمدينة مرسية – جبرها { الله } أيام محنة أهلها بالدجن الذى عصم الله تعالى من غوائله ، وخلص من حبائله – ، وكان قد ورد عليها من قبل طاغية الروم(٧٥) جماعة من قسيسيهم(٧٦) ورهبانهم شأنهم الانقطاع فى العبادة بزعمهم ، ونظر العلوم ، مشرئبون للنظر فى علوم المسلمين وترجمتها بلسانهم برسم النقد ، خيَّب الله تعالى سعيهم ! ، ولهم حرص على مناظرة المسلمين ، وقصد ذميم فى استمالة الضعفاء ، يأكلون على ذلك مال طاغيتهم ، ويستمدون به الجاه من أهل ملتهم ، قطع الله دابرهم !

وكنت فى ذلك الوقت أجلس بين يدى والدى(٧٧) – رحمه الله تعالى – لكتب الوثائق وعقود الأحكام ، وأنا إذ ذاك لما بقل وجهى . فوجبت لمسلم على نصرانى يمين فى حق حكم عليه بها . وأمرت أنا وشاهد آخر بالحضور عليها ليتقاضاها المسلم منه على مايجب ، بحيث يعظم النصرانى من دينه(٧٨) ، فتوجهنا معهما إلى مجتمع أولئك الرهبان ، بدار كان لهم فيها كنيسة يعظمونها . فلما فرغنا من قصدنا استدعانى قسيس منهم من بلاد مراكش ، فصيح اللسان ، مدرك للكلام ، معتدل فى المناظرة ، وأخذ يستدرجنى للمكالمة ، ويقول :

أنت طالب ونبيه ، وقد سمعت بوالدك وبك ، وحدثنى المسلمون عنكما بخير وعلم ، وأنا أريد أن أكلمك فيما لك فيه منفعة ولى . وأنت لست ممن تخاف أن يخدع بالباطل ، ولا ممن يخفى عليه الحق ويعاند فيه إذا ظهر له ، فاجلس معنا نأخذ فى مسألة من المذاكرة .

فأعجبنى كلامه وتصرفه فى الكلام العربى ، فجلست معهم ، وقعد إلىّ منهم أربعة ، وهو أحدهم ، وكأنهم تركوه للمكالمة ، فأخذ معى فى أمر معجزة أخذ متأدب مع الشارع – صلوات الله عليه وسلامه – ، وذلك منه خوف أن ينفرنى ، ومكيدة يستميلنى بها لسماع كلامه . وكنت – بحمد الله – قد أحكمت شيئا من أصول الدين مع والدى رحمه الله تعالى .

وقـــال لى : أنتم تقـــولون إن من أعظم معجزات نبيكم القرآن العظيم الذى بأيديكم .

قلت له : نعم .

قال : وأنا لا أتكلم معك فى غيره . وأنتم تقولون إن نبيكم تحدى به العرب قاطبة فى أحفل ماكانوا من الفصاحة ، فعجزوا ، وإن هذه النكتـة هى أوضح نكت الإعـجـاز وأجـلاها وأبقاها على الدهر ، بحيث يقف عليها المتأخر كما وقف عليها المتقدم ، ويستوى فى التوصل إليها الخاص والعام .

قلت له : نعم .

قال : وأنتم تقرأون فيه : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار »(٧٩) ، وذلك فى آية التحدى ومعرض التعجيز ، وتقولون إن نفى المستقبل الذى فى قوله « ولن تفعلوا » وهو النص على أن ماكان من العجز عنه فى الوقت باقٍ فيما بعد ذلك إلى باقى الدهر .

قلت : نعم .

قال : ثم لم يبق معارض واحد فى الوقت ، ثم مضت السنون والأحقاب ، وانقرض لسان العرب الصحيح ، واستولى عليه الفساد أقمتم الإعجاز وصح ذلك النفى المتقدم وجوداً صَدَّق الخُبْرُ الخَبَرَ رأيتم أنه لم يبق للمعارضة مظنة تقدير ، وأن المتأخر فى هذا حصل على ثلج اليقين من المتقدم .

فقلت له : أما هذا فلا أقول فيه ، إلا أن الأمر استمر على ما كان عليه أولا ، ولايزيد المتقدم على المتأخر ولا المتأخر على المتقدم . والحق إذا ظهـــر من وجـه واحد فى وقت ما لاتزيده كثرة الوجوه صحة ، ولاتدفع عنه شبهة ، ولكن هذا واقع فى الوجـود ، كما قلت ، فما تريد أن تبنى على هذا ؟

فقال - تعالى الله عن قوله ونزه الوحى الكريم عن تخييلاته : اسمع الآن ما أقوله ، ولا تفهم عنى أنى أريد به أن أحدا عارض القرآن ، أو أتى فى ذلك بشئ يوقع فى النفس احتمالا . لا والله ! لا أقول ذلك ، ولا أدعى مالم يقل به أحد من أهل ملتكم أو غيرها(٨٠) ، ولكنى أقول شيئا آخر افهمه عنى وتثبت فيه ، فإنه موضع نظر ، فى نفسى منه شئ ، ولم أجد من أهل ملتكم أحداً يزيله عنها ، على كثرة سؤالى عنه لكل من توسمت فيه المعرفة منكم ، وذلك أن الكتاب المسمّى بـ « المقامات » قد أجمع أهل ملتكم على أن أهل الأدب عجزوا

عن معارضته ، وكل من تعرض لذلك لم يأت بشئ يقاربه ولا يقع موقعه .

ثم إن مؤلفه مع ذلك تحدى أهل اللسان قاطبة بشيء منها ، رأى أنه لايؤتى بمثله ، وزاد إلى ذلك بأن صرح بنفى الإتيان بمثله فى المستقبل تصريحا لايمكن إنكاره ، وذلك قوله فى المقامة السادسة والأربعين : « أنشد البيتين المطَّرَفين(٨١) ، المشتبهى الطرفين ، اللذين أسكتا كل نافث ، وأمِنا أن يُعَزَّزا بثالث » فأنشده :

سِمْ سِمَةً تحسن(٨٢) آثارها
واشكر لمن أعطى ولو سِمْسِمَه

والمكْرُ مَهْما اسطعت لا تأته
لتقتنى السُّؤْدُدَ والمكرُمَه(٨٣)

وقد مضت بعد الأعصار ، وانقرضت الأجيال ، فلم يأت أحد لهما بثالث كما قال ، لا فى عصره ولا بعد عصره ، على كثرة درس الناس لهما وتداولها فى مجالس المذاكرة ومحافل الأمراء واشتهارها فى الأمصار ، فعلى ما تقرر أولا [و] وجدناه عند جمهوركم فى حق القرآن مُسلَّماً ينبغى أن يكون ما أتى به الحريرى أيضا فى هذا الموضع معجزة ، وإن لم يُردْ هو ذلك ولا قصد هذا المقصد الذى نحن بسبيله ، لكنه قد وقع ذلك فى الوجود اتفاقا ، ووقع وقوعا لا مرية فيه . وأنتم مع ذلك لا تقولون إنه نبى ، ولا يمكنكم قول ذلك ، ولا أنا أريده ، ولكن أريد أن هذا أمر قد وقع لمن حصل التسليم منكم فيه أنه غير نبى . فما الفرق بينه وبين ماكنا بسبيله أولا ؟ اللهم إلا أن نستعين على ذلك بقرينة أخرى ، أو بقرائن من غير القرآن ، فتكون حينئذ قد جعلت القرآن غير مستقل بإثبات نبوة نبيكم . وليس هذا قول أئمتكم .

وأخذ يقرر أشياء من هذا القبيل يتحذر فيها من تنفيرى ، فيتأدب مع القرآن عند ذكره ، ويعظم النبى (صلى الله عليه وسلم) متى عرض له ذكرا ، ويقول :

النظر فى هذا أحقٌّ عليك منه علىَّ .

فأدركنى والله انبعاث عظيم للزيادة على البيتين لم أر آكد علىَّ منه فى الوقت ، ولا ألجم لذلك المُخْزى منها ، فأخذت أبدى له الفرق بين المسألتين بطرائف(٨٤) البراهين الأصولية والأقوال العلمية ، وخاطرى مشتغل

بالتفرغ للزيادة عليهما ، وهو يقول فى كل ما أقول له :

- قد سمعت هذا وناظرنى به فلان .

فقلت له : كذا .

{ فقال } : وسمعت هذا الآخر ، وقد ذكر هذا الآخر فلان فى كتاب كذا ، واعترضنى فيه كذا كذا كذا .

إلى أن يسّر الله فى زيادة بيت واحد ، فقلت له :

- ومع هذا فقد زاد الناس على البيتين ولم يغفلوا عنهما .

فقال لى :

- وأين هذا ؟ فوالله ما رأيت أحداً ادّعى هذا ولا ذكره يوماً قط !

فقلت له : أنا أذكر بيتًا ثالثًا لهما ولا أذكر الآن قائله ، ولم أر أن أنسبه لنفسى فى الوقت ، لأنى قدرت أنه إن فعلت ذلك لا يقع منه موقعًا مؤثراً . ثم أنشدته :

والمَهْرُ مَهْرُ الحُورِ وَهْوَ التُّقَى

بَادِرْ { به } البَكْرَةَ والمَهْرِمَةْ

فلما سمعه وأعدته عليه حتى فهمه فكأنما ألقمته حجرا ، ورأيت فيه من الانكسار لذلك مالم أره عند سماع الحجج العقلية والمآخذ الأصولية . فأخذ فى الثناء علىّ ، وأخذ أصحابه يسألونه عن تفهيم ما قلته له ، فأفهمهم إياه ، وقيدوا البيت . ولم أنفصل إلا وهم كالمُسَلِّمين فى انقطاع شبهتهم ، قطع الله دابرهم ! ..

* *

* * *

الضميمة الثانية

نص الحريرى فى المقامة السادسة والاربعين حول البيتين اللذين تحدى بهما الابناء(٨٦)

« ... ثم أهاب { الشيخ مؤدب الصبيان الذى ينكشف فى نهاية المقامة أنه أبو زيد السروجى } بفتى فتّان ، يسفر عن أزهار بستان ، فقال له : أنشد البيتين المطرفين ، المشتبهى الطرفين ، اللذين أسكتا كل نافث ، وأمنا أن يُعَزَّزا بثالث ، فقال له : اسمع لا وُقِر سَمْعُك ، ولا هُزِم جَمْعُك ، وأنشد من غير تَلَبُّثَ ، ولا تَرَبُّث :

سِمْ سِمَةً تحسن آثارها
واشكر لِمَن أعطى ولو سِمْسِمَهْ
والمكْرُ مَهْما اسْطَعْتَ لا تأتِهِ
لتقتنى السُّؤْدُدَ والمكرُمَهْ

فقال له : أجدت يازُغْلول ، يا أبا الغلول ! » .

محمود على مكى
عضو المجمع

* *
* * *

حواشى المقال

(١) يعود الفضل الأول فى التنبيه على أهمية موضوع الجدل الدينى المسيحى الإسلامى إلى المستشرق الإسبانى الجليل ميكيل دى إيبالثا فى مقاله « ملاحظات حول تاريخ حركة الجدل الإسلامية ضد العقيدة المسيحية فى الغرب الإسلامى » :

Mikel de Epalza : Notes pour une histoire des polémiques dans l'Occident musulman, Arabica, vol. XVIII, fasc.1, fevrier, 1971, pp. 99-106

وانظر كذلك بحث محمد المنونى : مناقشات أصول الديانات فى المغرب الوسيط والحديث ، مجلة البحث العلمى الصادرة فى المغرب ، الرباط ، السنة الخامسة ، رقم ١٣ ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣-٣٢

(٢) انظر رامون منندث بيدال : أصول اللغة الإسبانية :

Ramón Menéndez Pidal : Orígenes del espanol, Madrid, 1950, pp. 417-418

(٣) أبو مروان حيان بن خلف القرطبى : المقتبس من أبناء الأندلس ، تحقيق محمود على مكى ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ١٣٨

(٤) نفس المصدر ص ١٤٢

(٥) عن هذه الشخصيات المسيحية وكتاباتهم عن الإسلام انظر :

Francisco Simonet : Los Mozárabes de España, Madrid, 1897-1903, pp. 340 ss ;

Isidro de las Cagigas : Los Mozárabes, Madrid, 1947, I, pp. 193-221 ;

Reinhardt Dozy : Histoire des musulmans d'Espagne, I, pp. 392-427, 438-445;

E. Lévi-Provençal : Histoire de L'Espagne musulmane, I, pp. 291-303;

(٦) أبدى المستشرق الهولندى راينهارت دوزى دهشته من كون رجال الدين المسيحيين قد صوَروا العقيدة الإسلامية تصويراً مشوهاً إلى أبعد حد مع أن معرفتهم بالإسلام كان ينبغى أن تصبح أوثق وأصح بحكم ذلك التعايش الحميم مع المسلمين ، فهو يذكر أن القديس إيولوخيو فى حديثه عن رسول الإسلام محمد (صلى الله عليه وسلم) بدلا من أن يرجع إلى الكتب العربية أو حتى إلى أبناء ملته الذين عرفوا الكثير عن الإسلام إذا به يستمد معارفه عن مخطوط قديم وقع فى يده بمحض الصدفة فى أحد أديرة بنبلونة Pamplona (فى أقصى شمالى إسبانيا) ، هذا مع أنه كان من أوسع رجال الدين المسيحى ثقافة ومن أقدرهم على التعامل مع كتب المسلمين بشكل مباشر ، فقد كان يجيد العربية كما كان يجيدها تلميذه ألبارو القرطبى ، وكان بوسعه أن يقرأ ماكتب بها . انظر :

R. Dozy : Historia de los musulmanes de España, trad. esp. por Federico de Castro, ed. Buenos Aires, 1946, I, pp. 394-395.

(٧) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، القاهرة ١٣٢١ هـ . /١٩٠٤ م ، ٤٨/١-٦٥ ، ٢/٢-٩٠ (فى مناقشة فرق المسيحية) و « رسالة الرد على ابن النغريلة اليهودى » ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٥-٨١ (فى مناقشة طوائف اليهود) .

(٨) ابن بسام الشنترينى : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩ - القسم الأول ص ٧٦٧

(٩) انظر تقديم الدكتور إحسان عباس لرسالة الرد على ابن النغريلة ص ١٣

(١٠) قام بدراسة هاتين الرسالتين ونشر رد الفقيه الباجى عدد من الباحثين نذكر منهم :

D. M. Dunlop : A Christian Mission to Muslim Spain in the 11th Century, Al-Andalus, vol. XVIII, 1952, pp. 259-310;

Jacinto Bosch Vilá : A propósito de una misión cristiana a la Corte de al-Muqtadir Ibn Húd, Tamuda (Tetuán), 1954, Sem. 1, p. 97;

Allan Cutler : Who was the "Monk of France" and when did he write ?, Al-Andalus, vol. XXIII, 1963, pp. 249-269;

Abdelmagid Turki : La lettre du "Moine de France" a Al-Muqtadir billáh, roi de Saragosse, et la réponse d'Al-Báŷī, le faqih andalou, Al-Andalus, vol. XXXI, pp. 73-153.

(١١) انظر ترجمة عبد الملك بن مسرة فى الصلة لابن بشكوال القاهرة ١٩٥٥ ، رقم ٧٧٨ ص ٣٤٨ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٥٧

(١٢) انظر فهرسة ابن خير ، تحقيق فرانسسكو كوديرا وخوليان ريبيرا ، سرقسطة ١٨٩٣ ، ص ٤١٨

(١٣) انظر ترجمة مفرج هذا فى التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق فرانسسكو كوديرا ، مدريد ١٨٨٦ ، رقم ١١٤٩ ص ٣٩٩

(١٤) الإعلام ، تحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا ، القاهرة ١٩٨٠ ص ٤٩ ، وقد ورد اسم ابن مسرة فى المطبوع محرفا إلى « ابن ميسرة » .

(١٥) فى ترجمة ابن أبى عبيدة الخزرجى انظر التكملة لابن الأبار ، القسم الأول ، تحقيق الفريد بل وابن أبى شنب ، الجزائر ١٩٢٠ ، رقم ٢٢٣ ص ١٠٤ ، الديباج المذهب لابن فرحون ،

القاهرة ١٣٥١ (١٩٣٣) ص ٥٠-٥١ ، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتى (على هامش الديباج) ص ٥٩ ، وأوفى ترجمة له فى كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، السفر الأول ، تحقيق الدكتور محمد بنشريفة - بيروت ، بدون تاريخ ، رقم ٣٠٨ ص ٢٣٩-٢٤١

(16) Fernando de la Granja : Milagros españoles en una obra polémica musulmana, Al-Andalus, vol. XXXIII, 1968, pp. 311-365.

(١٧) حول هذه الترجمة وشخصية الملك المسيحى الذى أمـــر بها هناك دراســـة بقلم الباحث ج. كريتشيك بعنوان «بيتر الجليل والإسلام» :

J. Kritzek : Peter the Venerable and Islam, Princeton, 1964

(١٨) انظر فرناندو دى لاجرانخا فى دراسته المشار إليها ص ٣٢٣-٣٢٤ وحول حركة المترجمين بطليطلة انظر أنخل جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٥٣٦-٥٤٠

(١٩) انظر ترجمته فى معجم أصحاب أبى على الصدفى لابن الأبار ، تحقيق فرانسسكو كوديرا ، مدريد ١٨٨٥ ، رقم ٢٠٨ ص ٢٢٨-٢٢٩ ، والإحاطة لابن الخطيب ، نشر محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٥ ، ٤٠٤/٣

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، القسم الموحدى ، بيروت ١٩٨٥ ، ص ٣٦٧

(٢١) البيان المغرب ص ٤٣٢ . وحول هذه السنوات المضطربة من حياة مرسية انظر كتاب جاسبار رميرو : تاريخ مرسية الإسلامية :

M. Gaspar Remiro : Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, 1905, pp. 291-313

(٢٢) حول جهود ألفونسو الحكيم الثقافية انظر تاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا ص ٥٧٣-٥٧٦ وكذلك أجوادو بلييه : مجمل تاريخ إسبانيا .

Aguado Bleye : Manual de historia de España, Madrid, 1947, pp. 935-936

(٢٣) الإحاطة لابن الخطيب ٣/٦٧-٦٨

(٢٤) نفس المصدر السابق .

(٢٥) حول ابن سبعين انظر ترجمته فى الإحاطة ٤/٣٤ والكتاب الذى أفرده لدراسة حياته ومذهبه الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : ابن سبعين وفلسفته الصوفية ، بيروت ١٩٧٣

(٢٦) عن « المسائل الصقلية » انظر كتاب التفتازانى المذكور ص ١٠٨-١١٧ والملاحظات القيمة التى أوردها الدكتور حسن حنفى فى مقاله « روح الأندلس وتهيئة الغرب الحديث : قراءة فى المسائل الصقلية لابن سبعين ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة العدد ٥٣ - مارس ١٩٩٢ ص ٥٣-٧٢

(٢٧) انظر الحلة السيراء لابن الأبار القضاعى اليلنسى ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ٢/٣١٤

(٢٨) الإحاطة ٣/ ٨٠

(٢٩) الإحاطة ٢/ ٤٣١-٤٣٢

(30) Fernando de la Granja : Una polémica peligiosa en Murcia en tiempos de Alfonso el Sabio, Al-Andalus, vol. XXX, 1966, pp. 47-72

(٣١) فى ترجمة رشيق هذا انظر التكملة لابن الأبار ، القسم الأول ، تحقيق الفريد بل وابن أبى شنب ، الجزائر ١٩١٥ ، رقم ١٦ ص ١٣ ؛ والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى ، السفر الأول ، رقم ١٥٤ ص ١١٦

(٣٢) ترجمته فى جذوة المقتبس للحميدى ، رقم ٢٠٧ ص ١١٤-١١٦ ؛ الحلة السيراء لابن الأبار ١٢٨/٢-١٢٩ ، معجم الأدباء لياقوت الحموى ٣٣/٣-٣٤

(٣٣) غير أن الدكتور عصام سيسالم فى دراسته القيمة حول تاريخ الجزائر الشرقية يدرجه فى قائمة قضاة الجزيرة لا ولاتها ، انظر « جزر الأندلس المنسية » ، ط . بيروت ١٩٨٠ ص ٥٠٤

(٣٤) فى هذه الأحداث انظر كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى الذى نشره ليفى بروفنسال بعنوان «مذكرات الأمير عبدالله {بن بلقين} آخرملوك بنى زيرى بغرناطة ، نشر دارالمعارف ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٧٩-٨١ ، ١١٠-١١٢ ، ١٤٤ ؛ وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ط . تونس ١٩٦٦ ص ١٠٢ ؛ والذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام القسم الثالث ٢٥/١-٢٦ ؛ والحلة السيراء لابن الأبار ١١٦/٢-١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤٠-١٤٨ ، ١٧٢-١٧٥ ؛ والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٣٨٩/١-٣٩٠ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٨١-١٨٢ ، ١٩٢ ؛ والحلل الموشية ، تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ص ٦٩-٧٠

(٣٥) الصلة لابن بشكوال ، رقم ١١٤ ص ٥٧ وهناك فتوى له نقلها صاحب المعيار المعرب (٤٠٣/٩) وعلق عليها ابن سهل .

(٣٦) معجم أصحاب أبى على الصدفى ، رقم ٣٤٩ ص ٢٦٨ ؛ والتكملة (كوديرا) رقم ١٨١٩ ص ٦٥٤ ، وقد ترجم له ابن عبد الملك أيضا ولكنه ذكر أنه توفى قبل سنة ٥٢٠ - الذيل والتكملة ، السفر السادس ، رقم ٧٤٢ ص ٢٨٢ -٢٨٣

(٣٧) انظر ترجمة عتيق المذكور فى الذيل والتكملة ، السفر الخامس، رقم٢٣٢ ص١١٩-١٢٠ ، وانظر كذلك السفر الأول ص ٥١١

(٣٨) الذيل والتكملة ، السفر الأول ص ٤٠

(٣٩) الذيل والتكملة ، السفر السادس ص ٥٣

(٤٠) الديباج المذهب ص ١٠٥ ؛ وحسن المحاضرة لجلال الدين السيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ - ٤٥٥/١

(٤١) الديباج ص ٣٢٨ ؛ وحسن المحاضرة ٤٥٨/١

(٤٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى شهاب الدين أحمد بن على ، ط . حيدر اباد الدكن ، سنة ١٣٥٠ (١٩٣٢) - ١٧٤/٤

(٤٣) الإحاطة ٤٠٦/٤

(٤٤) نفس المصدر والصفحة .

(٤٥) الذيل والتكملة ، السفر السادس ، رقم ٢٤٤ ص ٩٧

(٤٦) الإحاطة ٤٧٢/١-٤٧٦

(٤٧) فى ترجمة ابن رشيق الواردة فى كتاب « بلغة الأمنية » أنه ولى أيضا قضاء سبتة ، غير أننا نعتقد أنه لم يجاوز خطة الكتابة . انظر «بلغة الأمنية ومقصد اللبيب ، فيمن كان بسبتة من مدرس وأستاذ وطبيب» لمؤلف مجهول ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ١٩٨٤ ، ص ٢٢

(٤٨) الإحاطة ٤٠١/٣

(٤٩) الإحاطة ٢٨٩/١

(٥٠) الإحاطة ١٣/٤

(٥١) راجع عن هذه السفرة الدائرية التى أصبحت تدعى «الشطرنج الرومى» الملاحظة الطريفة التى أوردها فرناندو دى لاجرانخا فى مقاله الذى سبق أن أشرنا إليه فى مجلة الأندلس ص ٥٢ ، حاشية ١١

(٥٢) انظر مناقشة هذه القضية وتصحيح نسبة الكتاب فى مقال فرناندو دى لاجرانخا ص ٥٣-٥٥

(٥٣) على بن أبى زرع الفاسى : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر دار المنصور ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ١٨١

(٥٤) نفس المصدر ص ٢٥٨ ونقل ابن القاضى الخبر وتصويب ابن أبى زرع لـه . انظر أحمد بن محمد بن أبى العافية المكناسى المعروف بابن القاضى : جذوة الاقتباس فى ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، نشر دار المنصور ، الرباط ١٩٧٣ ، ص ٤٩٢ . ويلاحظ أن اسم المؤلف ورد فى الترجمة التى أفردها له وفى المواضع الأخرى بصيغة «حسن» محرفا عن «حسين» (انظر الجذوة رقم ١٤٢ ص ١٨٠ وكذلك ص ٥٤٨) .

(٥٥) مقدمة ابن خلدون ، نشر المكتبة التجارية ، دون تاريخ ، ص ٥

(٥٦) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ص ٩ ؛ وحول كتب ابن رشيق الثلاثة : التاريخ وميزان العمل ومختصر ترتيب المدارك انظر كذلك عبد السلام بن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، تطوان ١٩٥٠ ، ص ٢٩٠ و ١٩٦ و ٣٠٩ على الترتيب .

(٥٧) فى مقاله السابق ذكره ٥٩-٦٠

(٥٨) صاحب هذه النسبة هو المستشرق الإسبانى فرانسسكو سيمونيت فى مقدمة «معجم الألفاظ الأيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين» :

Francisco Simonet : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes, Madrid, 1888, pp. CLXIV-CLXV

(٥٩) قام بنشر هذا المعجم المستشرق الإيطالى تشليستينو سكياباريللى Celestino Schiaparelli فى فلورنسا Firenze سنة ١٨٧١

(٦٠) فى مقاله المشار إليه ص ٦٠-٦٢

(٦١) أوردنا نص المناظرة كما جاءت فى «المعيار المغرب» فى الضميمة الأولى من هذه الدراسة .

(٦٢) نقلنا فى الضميمة الثانية من المقامة السادسة والأربعين النص الذى يتضمن تحدى الحريرى للأدباء .

(٦٣) انظر النص فى مقال عبد المجيد التركى الذى أسلفنا الإشارة إليه :

Abdelmagid al-Turki : La lettre du "moine de France", pp. 108-109

(٦٤) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ١٠٦/١

(٦٥) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى : إعجاز القرآن ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٩-٣٠

(٦٦) الذيل والتكملة بقية السفر الرابع ص ٤٩ - ٥٣

(٦٧) نفس المصدر ص ٤٩

(٦٨) نفح الطيب ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ ، ٢٣/٤، وقد أشار فرناندو دى لاجرانخا إلى هذا النص فى مقاله (ص ٦٤) ولكنه فهم منه أن المقرى رأى هذه الشواهد فى كتاب «المغرب» (بضم الميم) لابن سعيد ، غير أن المقصود هنا هو بلاد المغرب (بفتح الميم) .

(69) Ramon Menéndez Pelayo : Origenes de la novela, Madrid, 1961, pp. 66-69

(٧٠) ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ص ١٨٠-١٨١ ، ٥٩٢

(٧١) انظر خوسيه ماريا مليلس فاليكروسا : الشعر الدينى العبرى الإسبانى :

José Maria Millas Vallicrosa : La poesia sagrada hebraicoespañola, Barcelona, 1948, pp. 125-134

وكذلك الملاحظات القيمة التى سجلها حول هذا الموضوع الدكتور أحمد مختار العبادى فى مقاله « مقامة العيد لأبى محمد عبد الله الأزدى» فى صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ص ١٦٤-١٦٦

(٧٢) انظر ملاحظاتنا حول هذا التأثير المحتمل فى بحثنا فى كتاب «أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوربية» (فصل الأدب) ، نشر الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة ، القاهرة ١٩٨٧ ص ٨٠-٨٤

(٧٢م) هذا الاعتراض هو الذى أورد خلاصته الباحث الأمريكى جيمس ت . مونرو فى دراسته الممتازة عن بديع الزمان الهمذانى ومقاماته ، حيث يقول : «لقد اقترح البعض أن يكون للمقامات العربية دور فى نشأة الفن القصصى المعروف بالبيكارسك (قصص الشطارة) فى الأدب الإسبانى . غير أن الاعتراض الأكبر على هذا الغرض هو أنه لم يكشف بعد عن الوسائل التى أمكن بها نقل هذا الأدب [العربى] إلى الأوساط الإسبانية» . انظر .

James T. Monroe : The art of Badi az-Zaman al-Hamadhānī as Picaresque Narrative, American University of Beirut, Beirut, 1983, p 15.

(٧٣) ورد النص فى كتاب «المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب» للفقيه أحمد بن يحيى الونشريسى (المتوفى سنة ٩١٤/١٥٠٨) ، بيروت ١٩٨١ ، الجزء الحادى عشر ص ١٥٥-١٥٨

(٧٤) كذا فى الأصل ، ولا بأس بهذه القراءة ، ولو أن اللفظ يمكن أن يكون «كنت» أيضا . وهو وجه أصح ، لأن هذه الرسالة لم تكتب فى مرسية ، بل فى موضع آخر فى الأندلس أو المغرب كان فى حكم الإسلام ولم تلحقه سلطة المسيحية ، وفى تاريخ متأخر عن زمن المناظرة ، وهو مايفهم من العبارة التالية .

(٧٥) المقصود بطاغية الروم حسبما انتهى إليه استنتاجنا هو فرذلند أو فرناندو (الثالث) الملقب بالقديس Fernando III, el Santo (حكم بين سنتى ٦١٤ و ٦٥٠/١٢١٧-١٢٥٢) وهو الذى انتزع قرطبة وجيان وإشبيلية من أيدى المسلمين . أما مرسية فهى التى سالمه أهلها معترفين بسلطته وإن ظلوا يدبرون أمر مدينتهم ، وذلك فى نحو سنة ٦٤٠ (١٢٤٣) . وهـــذا هـــو المقصود بقول

ابن رشيق فى الرسالة «أيام محنة أهلها بالدجن» . وكانت مصالحة أهل مرسية لفرناندو الثالث على يد ابنه وولى عهده ألفونسو (العاشر) الملقب بالحكيم .

(٧٦) فى الأصل : قسيسهم .

(٧٧) والده هو أبو بكر عتيق بن الحسين بن عبد الله بن محمد الذى ولد على مايبدو فى بياسة Baeza ونزل مرسية وبها توفى . وامتدت حياته بين سنتى ٥٨١ و ٦٦١ (١١٨٥-١٢٦٣) . انظر ترجمتنا له فى ص ١٧٤ من هذا البحث والحاشية رقم ٣٧ . وترحم ابن رشيق على والده يدل على أن هذه الرسالة كتبت بعد وفاته أى سنة ٦٦١ (١٢٦٣) .

(٧٨) جرى العرف فى الفقه الإسلامى أن اليمين يجب أن تؤدى حيث يعظم الحالف سواء أكان مسلما أم ذميا ، فالمسلم يؤديها فى المسجد والمسيحى فى الكنيسة . انظر المعيار المعرب ١٠/٣٠٩

(٧٩) تمام آيتى التحدى هما : «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» (سورة البقرة ، الآيتان ٢٣ . ٢٤) .

(٨٠) ربما كان فى هذا دليل على أن القسيس صاحب المناظرة يبعد أن يكون رامون مارتى (أومرتين) الذى ينسب إليه أنه عارض القرآن الكريم . انظر بحثنا هذا ص والحواشى ٥٨-٦٠

(٨١) فى الأصل : «البيتين والمطربين» محرفاً عما أثبتنا .

(٨٢) فى الأصل : يحسن .

(٨٣) فى الأصل : ... استطعت ... لتنتقى ، تحريفاً عما أثبتنا .

(٨٤) كذا فى الأصل ، وقد تكون «بطرائق» .

(٨٥) فى الأصل تنقص «به» وبغيرها يختل الوزن ولا يتم المعنى ، ومعنى البيت أن من يرغب فى الزواج عليه أن يبادر بتقديم المهر سواء أكانت المرأة التى يريد البناء بها بكراً شابة أم عجوزا

هرمة . هذا ونلاحظ تشابها كبيرا بين بيت ابن رشيق هذا والبيت الذى نظمه فى معارضة الحريرى الأديب الإشبيلى سلام بن عبد الله بن سلام الباهلى (توفى سنة ١١٤٩/٥٤٤) :

والمَهْرَمَةْ لاَ تُغْلِهِ أوْ تَرَى شَدِيدة البعد عَن المَهْرَمَةْ

(ابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكملة ، بقية السفر الرابع ص ٤٩) . وقد انتقد ابن عبد الملك هذا البيت فوصفه بالتكلف ، كما أنه نبه إلى اختلال شرط اشتباه الطرفين فيه باشتمال مفتتحه على واو العطف وخلو خاتمته منها (ص٥٠) وهو عيب يخلو منه بيت ابن رشيق المذكور . كذلك أورد ابن عبد الملك فى نفس الصفحة بيتا آخر لأبى زيد التميلى استخدم فيه المهرمة فى طرفى البيت هو :

والمَهْرَ مَهْرَ العَينِ لا تُغْلِهِ فإنَّه مَهْمَا غَلاَ مَهْرَمَةْ

(٨٦) مقامات الحريرى بشرح أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٧٦ ، الجزء الخامس ص ٢٣٦-٢٣٧

* *

* * *